﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾

هذه الجملة جزء من آية كريمة من سورة النساء يدخل تحتها مسائل مهمة، يذكّر الله به عباده ألا تنسيهم النعمة الحاضرة أحوالهم الماضية الناقصة، وأول ما يدخل في هذه الآية من النعم نعمة الهداية؛ فهي أعظم منَّة، وأكبر نعمة.

يقول العلامة السعدي في تفسيرها: «فكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم، فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه»(١).

فينبغي للمسلم أن يتذكر منَّة الله عليه بالهداية، ولا يغتر فيسخر من العصاة والمخالفين؛ بل مع نصحه لهم يرحمهم، ويود لهم الخير، ويتلطف معهم بالخطاب، ويتجمَّل معهم بأحسن الآداب، فهذا العمل من أعظم السبل لهدايتهم وانتفاعهم؛ وهذه أخلاق المؤمنين، وهو تأسٍّ بالنبي الأمين ﷺ فقد قال الله ـ تعالى ـ له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) تفسير السعدي (ص١٩٤).

ولما قَدِمَ الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن دوساً قد عصت وأبت، فادع الله عليهم، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه، فقال الناس: هلكوا. فقال: «**اللَّهُمَّ اهدِ دوساً وائت بهم، اللَّهُمَّ اهدِ دوساً وائت بهم**»(١).

ومن لطيف ما يُذكر هنا ما أخرجه البيهقي عن إبراهيم بن الأطروش قال: «كان معروف الكرخي على دجلة ونحن معه، إذ مر بها أقوام أحداث في زورق يغنون ويضربون بالدف: فقلنا يا أبا محفوظ(٢)، أما ترى هؤلاء في هذا البحر يعصون الله ﷻ، ادع الله عليهم، قال: فرفع يده إلى السماء فقال: إلٰهي وسيدي اللَّهُمَّ إني أسألك أن تفرحهم في الآخرة كما فرَّحتهم في الدنيا. فقال له أصحابه: إنا سألناك أن تدعو عليهم، ولم نسألك أن تدعو لهم. قال: إذا فرَّحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا، ولم يضركم شيء»(٣).

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أئمة السُّنَّة والجماعة وأهل العلم والإيمان؛ فيهم العلم والعدل والرحمة؛ فيعلمون الحق، ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداء؛ بل إذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤)، وأحمد (٧٣١٥) واللفظ له.

(٢) كنية معروف الكرخي.

(٣) شعب الإيمان (٥/ ٢٩٤).

عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم؛ كان قصدهم بذلك بيان الحق، ورحمة الخلق..»[١].

ولما نقل رَحِمَهُ اللَّهُ حكم الشافعي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، وأنهم مستحقون لهذا، عقَّب عليه بنظرة رحمة لهم فقال: «ومن وجه آخر، إذا نظرت إليهم بعين القدر ـ والحيرةُ مستوليةٌ عليهم، والشيطانُ مستحوذٍ عليهم ـ رحمتهم وترفقت بهم»[٢].

فهذا نظر الناقد الحكيم العادل؛ فعقوبة هؤلاء ليست تشفياً ولا انتقاماً؛ وإنما لأجل إصلاحهم وزكائهم.

ومما يدخل في هذه الآية القرآنية غير مسألة الهداية مسائلُ أبان شيئاً منها العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية، فقال: «هذه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان عند مؤاخذته غيره أحوالاً كان هو عليها تساوي أحوالَ من يؤاخذه، كمؤاخذة المعلم التلميذَ بسوءٍ إذا لم يقصرْ في إعمال جُهده، وكذلك هي عظةٌ لمن يمتحنون طلبة العلم، فيعتادون التشديد عليهم، وتطلُّب عثراتهم»[٣].

وهذه لفتةٌ جميلة من الطاهر، فكم من معلم ضيِّق الخُلُق مع طلابه، شديد المراس معهم، متصلِّب في تعامله، يحاسبهم

---

(١) الرد على البكري (ص٢٥٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/١١٩).
(٣) التحرير والتنوير (٤/٢٢٦).

على كل تقصير، ويطلب منهم التكاليف العسِرة، ونسي أنه لما كان طالباً كان لا يطيق المعلم الفلاني لشدته، ويكره ذاك المعلم؛ لأنه لا يقبل العذر مع وجاهته!

وإن مما يدخل في هذا الباب فيما يتعلق بالتعليم في الجامعات؛ تشددُ بعض الأساتذة وتصلُّبُهم عند مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه؛ سواء في انقباض وجهه أثناء المناقشة، أو في قسوة لفظه عند إبداء الملحوظة، أو شدته عند إعطاء الدرجة، مع استحقاق الباحث لها، ونسي حالته الماضية لما كان يترقب مناقشة رسالته الماجستير أو الدكتوراه؛ فقد أمضى زماناً يسأل الله أن يهوِّنها، وأن يكون موفَّقاً بالمناقشين ذوي السماحة واللين، ونسي خوفه ووَجَلَه الماضي وهو ينتظر إعلان نتيجته بعد مناقشة رسالته!

ومن ذلك أنه في البحوث المقدمة للتحكيم أو للفحص لأجل الترقية، يبدي بعض الأساتذة ملحوظاته بشدة لفظ، وخشونة تعبير، أو يبدي رأيه مباشرة بأن البحث غير مقبول، أو يفيد بأن ملحوظاته حتمٌ على الباحث تغييرها؛ وإلا فإن البحث مردود، وملحوظاته لا تعدو أن تكون وجهة نظر، يسَع فيها الاجتهاد والبحث والنظر، ونسي حالته الماضية لما غضب على ذلك المحكِّم الذي حكَّم بحثه بنفس الشدة التي يتعامل بها هو الآن!

ومن ذلك أن يوافق الأستاذ على تحكيم بحث، أو

مناقشة رسالة، وهو يعلم ضيق وقته، وكثرة شغله، ومع ذلك يأخذ الرسالة، أو البحث، فيحبسها عنده زماناً، ومقدِّم البحث والرسالة لا يزال ينتظر يَعد الأيام والليالي؛ وذاك لم يفتح البحث بعد، ونسي حالته الأولى التي كان يرتقب فيها؛ متى يستلم نتيجة التحكيم لبحثه، ومتى سيكون الموعد لمناقشة رسالته!

ومما يدخل في الآية مما ذكره ابن عاشور ـ أيضاً ـ قوله: «كبار الموظفين في معاملة من لنظرهم[1] من صغار الموظفين»[2].

فكم من موظف كان شديد النقد لذاك المسؤول، كثير التبرم منه، ثم لما صار مسؤولاً نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وصار يتعامل مع الناس برسمية، ويتكلم معهم بفوقية، وهمُّه ـ فقط ـ مصلحتُه الشخصية.

وإن مما يدخل في هذه الآية ما أشار إليه ابن عاشور أيضاً بقوله: «وكذلك الآباء مع أبنائهم إذا بلغت بهم الحماقة أن ينتهروهم على اللعب المعتاد، أو على الضجر من الآلام»[3].

فلا ينبغي للكبار أن يتضجروا من لعب الصغار المعتاد،

(١) هكذا وردت، ولعل الصواب: مَنْ تحت نظرهم.
(٢) التحرير والتنوير (٤/٢٢٦).
(٣) المرجع السابق.

ولا أن يزجروهم عن اللهو المباح؛ فإنَّ زَجْرَهم والتضجُّر منهم بسبب ذلك فيه عدم تقدير لهذه المرحلة العمرية التي مرَّت على هؤلاء الكبار.

ومما يناسب ذكره هنا عن الإمام سفيان بن عيينة ما نقله أحمد بن النضر الهلالي قال: سمعت أبي يقول: كنت في مجلس سفيان بن عيينة، فنظر إلى صبي، فكأن أهل المسجد تهاونوا به لصغره، فقال سفيان: «كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم»[(١)].

ومن لطيف ما يذكر في ذلك ما ذكره البهاء المقدسي قال: «كان عندنا صبيان يشتغلون على الموفق ابن قدامة، وكانوا يلعبون بعض الأوقات إذا خلوا، فشكى بعض الجماعة إلى الشيخ أبي عمر ـ أخي الموفق ـ فقال: أخرجوهم من عندنا، ثم قال: هؤلاء أصحاب الموفق، فاذكروهم له، فقالوا له، فقال الموفق: وهل يصنعون إلا أنهم يلعبون؟ هم صبيان لا بد لهم من اللعب إذا اجتمعوا، وإنكم كنتم مثلهم»[(٢)].

فلِلَّه در هذا الموفق، على جوابه الموفق، وما أجمل أن يجتمع فقه العلم، وفقه الأخلاق!

ويدخل في الآية أيضاً الأغنياء؛ فكم من إنسان أغناه الله

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٩).
(٢) تاريخ الإسلام (١٣/ ٦٠١).

بعد فقر، فصار جامد الكف، مصروفاً عن المكارم، لا تندى يمينه في معروف، ولا تهتز كفه لمكرمة؛ ليس للفقير عنده مأوى، ولا لليتيم ببابه ظل؛ فحاله كحال الأبرص والأقرع من بني إسرائيل؛ لما شفاهم الله، وبرأهم من مرضهم، وأغناهم بعد فقرهم، فطُلبت منهم الصدقة فقال كل واحد منهم: «الحقوق كثيرة، إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر!»[(١)] فسخط الله عليهم.

والخلاصة أنَّ تذكُّر الحالة الماضية الناقصة تجعل الإنسان الموفق يستشعر منَّة الله عليه، فيكثر من شكره، ويترفق مع الناس في أسلوبه، ويلين معهم في خطابه، ويتأنى في أحكامه، ويعتذر لهم فيما يجوز فيه الاعتذار، ويغلّب جانب الرحمة، والله الموفق.

---

(١) أخرج قصتهم البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).